

الاخلاق والاجتماع

تولستوي

مولده ونشأته ، المامه باللغات ، ملامحه وشكله ، اوصافه في طفولته ، يومياته ، موت والدته و اخلاقها ، موت والده و اخلاقه ، من كفله ، العمه القديسه ، تاتيانا ، حياة اللهو والمجون ، رأيه في النساء ، برنامج حياته ، سنوات ثلاث تصرف عبثاً ، كلمة عن رحلته ، احلامه ، خدمة الناس ، اول ما كتب ، خطاب رقيق لعمته العزيزة

مولده ونشأته

ولد عام ١٨٢٨ واما نشأته فكانت نشأة أبناء الطبقات العالية لعلم على اساندة من الالمان والفرنسيين عهد اليهم بتربيته وثقافته .

المامه باللغات

وكان كمعظم الروسيين الذين من طبقتهم ملما بلغات شيء . اما الانجليزية فلم يكن قد اتقنها كل الاتقان ، ولكنه كان يجيد الالمانية اياما اجادة ، ويتقن الفرنسية اتقاناً تاماً . ويكفي ان تطلع على رسائله العديدة لعمته لتتأكد درجة نبوغه وتضلعه في هذه اللغة .

ملامحه وشكله

كان يتألم كثير من قبح شكله وقد فاض اليه من ذلك مرة فكتب ما يلي :-
كانت تمر على برهات ينتابني فيها البأس واشعر بأنه لا يمكن ان نتحقق لرجل مثلي سعادة !! ، وكيف اكون سعيداً وانني عريضة وشفتاي غليظتان وعيناي صغيرتان !!

وقد كنت اتنى ان يقوم الله بمعجزة فيخلقني من جديد ، ويصورني في صورة اجمل من صورتي !!

صفاته في طفولته

كان مجتهداً ، شاذاً ضجوراً ، عواظياً ، حساساً ، متكبراً ، عابساً ، متحفظاً في الحديث ، نجولاً ، وكان مما يضاعف نجله شعوره بقبح شكله !!

يومياته

وقد كان تولستوى حريصاً منذ صباه على تدوين كل ما يحدث له يومياً وبقى (٦٥) عاماً مثابراً عاكفاً على كتابة يومياته وقيل انها لونشرت لملاّت ٤٠ مجلداً ضخماً !!
اليست ، بحق ، اوفي يوميات كتبها رجل في اي لغة من اللغات !!!؟

موت والدته واخلاقها

وقد وصف في يومياته موت والدته وقد توفيت سنة ١٨٣١ وقد كانت على شيء كثير من العطف والحنان ، تركته وعمره أكثر من ثلاث سنوات بقليل ، وقيل انها توفيت وطفلها لا يزيد عمره عن الحول الا قليلاً

موت والده واخلاقه

ولم يذكر تولستوي في مذكراته شيئاً عن موت ابيه ، والمعروف انه كان ميل للاستقلال الشخصي ، وعلى جانب عظيم من كرم الاخلاق ودمانة الطبع ، وعدم الميل لابهية العظمة ، ولم يعمر بعد مفارقة زوجته له غير ست سنوات قضاهما ، ثم ترك طفله يتيماً وهو لم يبلغ بعد التاسعة من عمره .

فكان - بلا شك - لموت والديه وحرمانه من الرقابة العائلية اكبر اثر في حياته .

من كفله؟

وكفله بعض اقاربه وبرز شخصين العمه القديسة ، الكونتيس الكسندره اوسثن ساكن ، وثاتيانا .

الحمة القديسة

كانت والحق يقال 'قديسة' وليس هناك من شك انها بذرت بذور الدين والفضيلة في نفس تولستوي فانضجت وابنت عندما بلغ الخمسين من عمره ، ويحمل بنا الآ نترك هذه القديسة حتى نأتي على شيء من تفاصيل حياتها ، ولا نريد أن نذكر الا ما كتبه تولستوي نفسه عنها ، فقال :

«اما عمتي فكانت متدينة حقاً جل همها ان تقرأ عن حياة القديسين ، وان تتحدث مع زائري الاماكن المقدسة ، الذين لا يمكن وصفهم الا بـ «انصاف المجانين» لافراطهم بل قل هوسهم الديني ، كما انها كانت لتسامر مع النساك والرهبان .

ولم تكن عمتي محافظة على «مظاهر» الدين فحسب ، كالصوم الطويل ، والصلاة الحارة ، والاتصال بالقديسين ومعاشرتهم ، بل عاشت محافظة على روح الدين ، عاشت عيشة مسيحية صارقة .

ولم تحرم نفسها ، من اسباب الترف والتعيم فحسب ، بل قامت بما هو اشرف بشير فقد كرست حياتها لخدمة الغير بما وهبها الله من قوة ومواهب . اما المال فما كان ليبقى في جيوبها فقد كانت تعطية لكل سائل !!

وقد حكى لي بعض الخدم ، انها مرة اثنا قيامها للصلاة الصباحية في الفجر ابت الا ان تسير على اطراف اصابع قدميها لكي لا تزعج خادماتها النائمة او توقظها .

ارأيت قلبا الرق من قلبها ؟
كما انها ما كانت لتأنف ان تقوم بما يقوم به الخدم في ذلك الوقت !
بل كانت ساذجة حتى في طعامها ولباسها !!
اليست ، بحق ، قديسة ؟؟؟

ثانيانا

اما ثانيانا فكان لها من التأثير والنفوذ ما يفوق نفوذ القديسة وتأثيرها . فقد كان نفوذاً اعظم وابقى لانه مبني على الحب . كانت تمت بصلة القرابة البعيدة جداً لتولستوي

وكانت على شيء وفير من الجمال فاحبها الكونت نيقولا والد تولستوي . فطلب الزواج بها ولكنها صممت ان تضحى ليشزوج بالبرنسية ماريافولكونسكايا ، وعاد فطلبها بسد ست سنوات على ان تكون اما لاولاده فرفضت الشطر الاول من طلبه ، وقيت ان تكون اما وقد ارادت من وراء ذلك ان تبقى هذه العلاقة بينها وبينه تقيّة شعريّة طامرة واصبحت العمّة القديسة الوصية الشرعية للاطفال الاربعة تولستوي واخوته الثلاثة .

وبقيت العمّة تاتيانا الوصية «الخيالية» «او» الملائكية . وكان اول معرفة تولستوي بتاتيانا عندما كانت في الاربعين من عمرها ولم يكن ليفكر في جمالها او عدم جمالها، وان كان لم يتألك من الاعجاب بعينها السوداءين وابتسامتها الحلوة ويديها الصغيرتين . وقد كتب تولستوي عنها فقال «لناعتان غير تاتيانا التي في الواقع لم تكن عمتنا ولكننا اطلقنا عليها «عمة» بحكم العادة وقد كانت صلة القرابة بعيدة جداً بدرجة لا اذكرها ولكنها حلت في قلوبنا المحل الاول لحبنا لها وحبها لنا .

وانذكر يوماً داعبني بينما كنت في الخامسة من عمري وكنا في حجرة الاستقبال فما كان مني الا ان امسكت يديها وقبلتها لاظهر لها حبي الجم . فكان لها تأثير عظيم علي . وجعلتني اشعر منذ صغري بلذة الحب اللاهي ولم تعلني ذلك بالكلام، ولكن علمتني بكيانها كله ، غمرتني بالحب !! ولقد رأيت وشعرت كيف كانت تلتذ بالحب وفهمت انالذة الحب وقد كان هذا اول درس تلقيتة منها . اماالدرس الثاني فعلمي لذة الحياة الهادئة .

حياة اللهو والمجون

ورغمًا عن قبح شكله وخجله كان يميل لحياة الخلاعة والمجون ويكثر من ترداده على المرافص والاشتراك في المساخر وقصد المرامح والملاعب . وعندما بلغ التاسعة عشرة تعود زيارة الدور السيئة السمعة وقد اخذ يكتب من ذلك الحين عن المرأة .

رأية في النساء

وقد كتب في ذلك الحين يقول «يجب ان تعتبر عشرة النساء ضرورة اجتماعية

« غير سارة » !! ويجب ان نبتعد عنهما كلما امكننا ذلك !! فمنهن نتعلم بلا جدال الشهوانية والتخنيث والاستخفاف بكل شيء !! ولكن لولاهن لفقدنا خصائصنا الفطرية كالشجاعة والحزم والتعقل .

والنساء اكثر قابلية للاخذ والاقباس من الرجال ففي بعض العصور « الطاهرة » كن افضل من الرجال ، ولكن في عصرنا الحاضر عصر الشر والفساد هن بلا شك اردأ من الرجال !

برنامج حياته

وقد وضع تولستوى لنفسه برنامجاً صعباً بل يكاد يكون مستحيلاً واني الا ان ينفذه مهما كلفه من مشقة ومهما صادفه من صعوبة .

ويكفي ان نمر عليه مرآً ليتأكد القارئ مبلغ صعوبته بل ليتحقق استحالة .

اراد تولستوي ان يدرس القانون درساً وافياً شاملاً واراد ان يدرس الطب من ناحيته العملية وان امكن من ناحيته النظرية ايضاً

واراد ان يتبحر في اللغات الفرنسية والروسية والاطالية واللاتينية واراد ان يدرس علم الزراعة درساً وافياً نظرياً وعملياً واراد ان يتفقه في علي التاريخ والجغرافيا وفن الاحصائيات وان يدرس العلوم الرياضية وان يعرف شيئاً من العلوم الطبيعية وان يتقن الموسيقى لا كبر درجة ممكنة وفوق ذلك اراد ان يكتب الفصول الإضافية في الموضوعات التي يقرأ عنها

استمعت عن برنامج اعقد واطول من هذا البرنامج ؟؟

حياته بعد خروجه من الجامعة

وقبل ان يترك تولستوي الجامعة ابنى الا ان ينفذ يديه من كل المعتقدات التي كان يعتقدونها والطقوس الدينية التي كان يمارسها وقد ابتدأ يدرس الفلسفة وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره . واتقطع عن الذهاب للكنيسة في السادسة عشر

وقد صرخ انه ما كان يؤمن بما كان يتلقنه في طفولته من التعاليم ولكنه كان

يؤمن بوجود الله عز وجل وان كان لا يعلم « ما هو الله ؟ ولم يكن لينكر المسيح ولا تعاليمه السامية :

الكمال !!

وكان جل همه السعي وراء الكمال
الكمال « عقلياً » بدرس كل ما امكنه درسه من شتى العلوم
الكمال « ادبياً » بسيره بموجب قوانين صارمة وضعها لنفسه
الكمال « بدنياً » بالتمرن على انواع متعددة من الرياضة التي تبعث على النشاط
وتقوي الجسم وتمرن الاعضاء ثم انه درب نفسه على الاحتمال والصبر وكل ادواع
الحرمان . وهو لا يعني من وراء كل ذلك الا ان يكون كاملاً لا في نظره حسب
ولا في نظر الله بل في نظر الناس وسرعان ما تبدل مجوده هذا الى رغبة اكيدة في
الانتصار على سواء والغلبة عليهم

سنوات ثلاث تصرف عبثاً

من ١٨٤٨ - ١٨٥١

ولا يجمل بنا ان نختم الفصل الاول من تاريخ حياة تولستوي قبل ان نأتى على
شيء من اخبار هذه السنوات الثلاث التي صرفها تولستوي عبثاً فقد عاش عبثة فاسدة
منغمساً في انواع الترف والملاذ ، وكان على وشك ان يختم حياته بالفشل كأخوته .
ويكفي ان نذكر طرفاً من حياتهم ليفهم القارئ ان اخوة تولستوي ما كانوا ليشرقوا
بحياتهم الفاسدة اخاهم الاصغر

فالاخ الاكبر (نيتولا) رغم اعترافنا بمسواهه النادرة عاش عبثة الانغماس في
الشكر ومات مسلولا قبل ان يترك له اثر ما ! وقد كان ضابطاً في الجيش في بلاد البلقان
واما اخوه الثاني (سرجيس) فقد كانت حياته ملوثة بالاثم وكان يعاشر الساقطات
وتزوج من واحدة منهن

واما الاخ الثالث ديمتري فقد كان مدمناً للخمر كالاخ الاكبر ومات مسلولا

كلمة عن رحلته

قصد تولستوي الجنوب ليجتمع بأخيه نيقولا الذي كان ضابطاً في الجيش في ذلك الوقت ولم يكن يطمع تولستوي من وراء هذا السفر الا ان يقوم برحلة لذيذة وان يتمتع بمشاهدة مناظر جديدة وان يتخلص من دائنيه ومن عبء ديونه الثقيلة ولكنه فكر بعد ذلك ان ينخرط في سلك الجندية وقد كانت الخدمة في الجيش الوظيفة الوحيدة المفتوحة امامه والتي يمكنه ان يعمل فيها وقد ظهر له كل شيء باسماء جذابا وكان مغرماً على الاكثر بحياة سكان الجبال الحرة والمناظر الطبيعية البديعة وجمال النساء الفاتن وكثيراً ما فكر ان ينسى كل حياته الماضية ويتنازع له كوخاً صغيراً ويتزوج من قروية فوقازية ويعيش مع العم اروزكا فيخرج معه للصيد والقتص . وكان يسأل نفسه مراراً « لماذا لا افعل ذلك ؟ وما الذي يمنعني ؟ ولكنه كان يسمع هائفاً يقول « انتظر تريث لا تسرع . لا تجزم . كان ما زال لا يود من صميم فؤاده ان يعيش عيشة اروزكا ولو كان ذلك فانه كان يشعر ان هناك سعادة لا يمكن يصل اليها عن طريق هذه الحياة فزال يشعر ان السعادة لا تكون الا بجانب التضحية وانكار الذات ! فكان لذلك ينتهز كل فرصة سانحة ليضحى ويخدم غيره خدمة صادقة .

وكان يشعر شعوراً داخلياً انه لم يخلق ليعيش عيشة عادية كبقية الناس ! وكان يسأل نفسه كثيراً « كيف » يجب ان اعيش لاتيتمتع بالسعادة الحقيقية ؟؟ وماذا لم اشعر بهذه السعادة في السنين السابقة ؟؟ ثم يأخذ يفكر في حياته السابقة الملوثة باللاثم والعار وكان يخجل من نفسه اشد الخجل لانغماسه في حياة الفجور والشر ثم كأنه يفتق من احلامه ويثبته فيقول لنفسه : السعادة ؟؟ نعم السعادة هي تكريس الحياة لخدمة الناس ! هذا امر واضح جلي ، كيف لم افهمه من قبل ! وكيف لا يفهمه الناس جميعاً ، اننا نطلب السعادة وكيف نتوصل لهذه السعادة ولكننا لا نريد ان نسلك الطريق الموصل اليها ، ثم نشكو ونتذمر لاننا لا نتمتع بها ، اننا نكسل الجبل اطبق من هذا الجهل ؟ هناك شعور داخلي في كل منا يدفعنا لطلب السعادة وعلى ذلك

فالسعادة شيء محال شرعي . ولكننا اذا كنا نحاول ان نصل اليها عن طريق محبة الذات بان نجري وراء الثروة لنفعلننا الشخصى والشهرة وحياة التمتع والرفاهية والحب فلا يمكن ان نصل اليها مطلقا فان ذلك كله غير محال وان كان طلب السعادة في ذاته شرعي .

وكانت تظهر عليه دلائل الانشراح كأنه وصل الى حقيقة جديدة لم يصل اليها عالم من ذي قبل . ثم اخذ يكلم نفسه قائلا : نعم ! لا احتاج لشيء لنفسى ، فلماذا لا اكرس حياتى لغيرى ؟ ! !

اول ما كتب

وكان اول ما كتب عن « الطفولة » فارسل مقالة الى مجلة عصرية جديدة يحررها شاعر يسمى Nekrasof (نكراسوف) وقد نشرت في نوفمبر عام ١٨٥٢ واسم المجلة Contemporary ولكن صاحب المجلة لم يكافئه على « انعابه » ولكنه كتب له « يغريه » : فاكده تمام التاكيد انك لو ارسلت لنا مقالة اخرى قدمنا لك في الحال سبعة جنيهات عن كل ١٦ صفحة وهذه اكبر قيمة تعطى للكتاب من الدرجة الاولى

خطاب لعمته

وهاك نموذجاً للخطابات التي كان يكتبها لعمته ثانيانا التي كان يحبها حباً خالصاً . استلمت مكتبك المؤرخ ٢٤ نوفمبر واني اجيب عليه في الحال « كعادتي » لقد كتبت لك ان خطابك قد ازعجني كثيرا وقد كنت انجل كثيرا من اظهار مكنونات قلبي ولكي اليوم اسمح لدموعي ان تهمر انهارا غزيرا ولا احاول منعها كما تذكرت حبك بل اني اشعر بارتياح كلي عندما تهمر هذه الدموع بغزارة . حقيقة قد ملأ خطابك قلبي حزنا واسى فقد كنت الوحيدة التي ملأت قلبي بالرجاء والحب ولقد كنت الوحيدة المتابعة على نصيحي باخلاص اكيد . ولكن بمنتهى الاسف لم اكن اتبع نصيحتك دائما مع اني كنت اتمنى من صميم قوايدي ان اتقلب على عواطفي وانزل على مشورتك الثمينة طول حياتي . واسمحي لي ان افصح عن مكنونات

قلبي في هذه الحقيقة وعن تأثير خطابك في نفسي هذا التأثير العميق، والافكار
الكثيرة التي تخالجي وتملأ مخيلتي . لقد ذكرت انك عازمة على تركي وانك تسألين
الله ان يضع حدا لحياتك ويختم هذا الفصل ، ثم قد ين ان حياتك صبحت لا تنكاد تحتل
واصبحت وحيدة صاحبني عمي العزيرة واذا صرحت لك انك قد اغضبت الله واغضبت
تولستوي الذي يحبك من اعماق قلبه تطلبين من الله ان يخلصك من هذه الحياة بمعنى آخر
تطلبين « الموت »

اي تطلبين ان تحل بي اعظم كارثة يمكن ان تحل بي في كل حياتي يعلم الله ان اعظم
كارثتين يمكن ان يحرقا قلبي ويدملاه فراقك وفراق نيقولا فانما الشخصان الوحيدان
الذان احبهما من اعماق قلبي ولا احب شخصاً أكثر منهما وماذا يبقى لي الله لو سمع صلاتك ؟
لقد كنت اسعى واحاول ان اصل للكمال لارضيك

لقد كنت اسعى واحاول ان اتحل بكل الصفات السامية لاحوز رضاك وعطفك
لقد كنت دائماً اشعر بالسعادة اذا كان من ورائها سعادتك وبالهناء اذا كنا
منفصلا عنه سوية .

كنت اخاف ان ارتكب شيئاً يفضيك ويسوءك . . . محبتك هي كل شيء لي . .
ابعد ذلك تطلبين من الله ان يفصلنا بالموت ؟ . .
لا استطع ان اصف لك ما اشعر به الآن من نوح . . . فالكلمات لا تكفي لتصير
بكه فوادي من الحب ولكنني اخاف لئلا تقوين اني ابالغ . . . ومع ذلك فاني ابكي
وابكي وابلى خطابي الذي ارسله لك بالدموع . . .

كامل صموئيل مسيحية

يتبع